الفصل السابع

نظرية بارسونز فى علم الاجتماع
التأثير وموضوعات الخلاف

أولا : تالكوت بارسونز وعلم الاجتماع الامريكى المعاصر ٠

ثانيا : الوظيفية فى نظرية بارسونز ٠

ثالثا : سوسيولوجيا القيم عند بارسونز ٠

رابعا : أهمية نظرية بارسونز والحدود المفروضة عليها ٠

نظرية بارسونز فى علم الاجتماع
التأثير وموضوعات الخلاف

يمتد عمل بارسونز خارج نطاق علم الاجتماع · فهو ـ كما رأينا ـ يغطى مجالا واسعا ، لأنه يقدم نظرية عامة للفعل البشرى تعتبر النظرية السوسيولوجية جزءا وحيدا منها · ومع ذلك فان بارسونز دائما ما يصف نفسه بانه عالم اجتماع وما يزال يصر على ذلك · والمحقق أن علم الاجتماع هو البؤرة التى تتركز حولها النظرية العامة فى الفعل · ولقد كان لبارسونز تأثير واسع النطاق واثارت اعمالة قدرا كبيرا من الخلاف فى الدوائر السوسيولوجية · ولذلك فانه من أجل تقييم اعماله فى هذا الفصل الأخير ، فاننا يجب أن نضع هذه الاعمال فى نطـــاق علم الاجتمـــاع الامريكى المعاصر ·

اولا : تالكوت بارسونز وعلم الاجتماع الامريكى المعاصر

ناقشنا فى الفصل الأول موقع بارسونز داخل علم الاجتماع الامريكى فيما بعد الحرب · واكدنا على أنه قد لعب دورا تجديديا فى المراحـــل الأولى من حياته الاكاديمية ، حيث سبح ضد تيار علم الاجتماع الامريكى السائد فى هذا الوقت وتلا ذلك مباشرة أن اصبح بارسونز اكثر توحدا مع علم الاجتماع الامريكى الى درجة يفشل فيها النقاد احيانا فى التمييز بينهما · فبعد أن كان بارسونز ينتقد على انه ليس أمريكيا بدرجة كافية ، أصبح يلام على اى شىء يرتبط بعلم الاجتماع الامريكى ·

ويدل ذلك ـ بمعنى ما ـ على التأثير الذى مارسه بارسونز وما يزال يمارسه داخل علم الاجتماع الامريكى · وأحد أسباب هذا التأثير هـــو الموضوعات العديدة التى عالجها فى مقالاته وابحاثه ، وهى دراســـات كانت تنتج دائمـا رؤية جـديدة أو مركبا فكريا أصيلا · ولـكن السبب الرئيسى وراء هـذا التـأثير هـو أن بارسونز ، من بين منظرى عـلم

الاجتماع سواء فى أمريكا أو فى العالم كله ، يعتبر الوحيد الذى قـــدم اكثر الاطر التحليلة والتصورية اتساعا وتفصيلا واكثرها ترابطـــا من الناحية المنطقية • فلا توجد خارج نطاق نظرية بارسونز نظرية تقـــدم لعالم الاجتماع هذا النسق النظرى الشامل مع اداة تحليلية الا النظرية الماركسية • وهذا الوضع الفريد لنظرية بارسونز هو الذى أضفى على أعماله هذه الأهمية الخاصة ، وان كان قد جعلها أيضا هدفا لمصـــادر هجومية عديدة • فتأثير بارسونز لم يقتصر على ما يمكن أن نطلق عليهم توابعه أو تلاميذه أو هؤلاء الذين اشتقوا من أعماله أفكارا لبحوثهم ، بل انه تعـدى كل هؤلاء وأولئك الى معارضى فكره ، الذين استفادوا منه ، بدرجة معينة •

ويجب القول ــ دفاعا عن بارسونز ــ بأنه كان مسئولا الى حد بعيد عن ارتفاع مستوى النقاش فى علم الاجتماع الامريكى • وليس من الضرورى الموافقة على نظريات بارسونز ، ليدرك المرء انه على مدار اكثر من أربعين سنة ، ومع قدر كبير من الاتساق والتماسك حرك بارسونز علم الاجتماع ليواجه المشكلات النظرية وليحرر نفسه من النزعة الامبيريقية التى غرق فيها • ولذلك فان كثيرا من المناقشات الحية التى ظهرت فى علم الاجتماع الامريكى فى السنوات الأخيرة ترجع الى التأثير المباشر أو غير المباشر لتالكوت بارسونز • وتضم هذه المناقشات بعض المسائل مثل : مميزات وعيـــوب النظرية العـــامة ، والنزعة الوظيفية ، والموضوعية العلمية ، ونظرية ماكس فيبر فى علم الاجتمـــاع ، والعـــلاقة بين النظرية والبحث الامبيريقى ، واستخدام مبادىء علم السبرنطيقا ونظرية المعلومات ونظرية التبادل فى علم الاجتماع • ويمكن القول اذن انه بدون نظرية بارسونز لم يكن لعلم الاجتماع الامريكى أن يصل الى هذه الدرجة من الثراء الفكرى التى وصل اليها •

ولم يحرك بارسونز علم الاجتماع الامريكى على المستوى النظرى فقط • بل انه أضفى روحا جديدة على التحليل السوسيولوجى لكل جوانب الواقع الاجتمـــاعى تقريبا ، حيث قـــدم رؤى وفروضا جديدة ، واقترح مداخل جديدة للدراسة ، وغير الصياغات التقليدية لمشكلات الدراسة • ولا توجد الا ميادين قليلة جدا فى علم الاجتماع لا يشاهد فيهـــا تأثير

بارسونز ، سواء بصورة مباشرة عن طريق كتاباته أو بطريق غير مباشر من خلال تلاميذه واتباعه وكل هؤلاء الذين تأثرت اعمـــالهم به بطـــرق مختلفة · وهناك بعض الميادين التى يظهر فيها تأثير اتباعه بصورة اكبر من ميادين اخرى ويصدق هذا على علم الاجتماع المعرفى وسوسيولوجيا العلم(١) ، وعلم الاجتماع الدينى(٢) ، وعلم الاجتماع الاقتصادى(٣) ، وعلم الاجتماع السياسى(٤) ، وعلم الاجتماع التربوى(٥) ، وسوسيولوجيا التغير الاجتماعى(٦) ، وتاريخ الفكر الاجتماعى(٧) ·

ولم تلاق أعمال بارسونز خارج نطاق علم الاجتماع سوى استجابة طفيفة من علم الاقتصـــاد ، والانثروبولوجيا أو علم النفس فى الولايات المتحدة(٨) · غير أن تأثيره كان كبيرا على علم السياسة · ويعد هذا شيئا طبيعيا لأن علماء السياسة يشعرون بنقص اكبر من علماء الاقتصاد وعلم النفس فى المجال النظرى والتصورى ؛ ومن ثم فقد قدمت لهم أعمال بارسونز نموذجا تحليليا ينطبق بصورة مباشرة على مجال تخصصهم · واكثر علماء السياسة استجابة لأعمال بارسونز هم الذين ينتمون الى المدرسة الفكرية التى تخضع الأبنية السـياسية والبيـــانات الامبيريقية للتحليل النسقى ، مؤكدة على الاتصال والضبط داخل هذه الابنية · ومن أبرز هـؤلاء الـذين تأثروا ببارســـونز بدرجات مختلفـــة كارل ديتش Karl Deutsch (٩) ، ووليـــم متشـــيل(١٠) Willam Mitchill ، وديفيد ايستن(١١) David Easton، وأميتا اتزيونى(١٢) Amitai Etzioni .

وأخيرا فانها مفارقة حقا أن يمتد تأثير بارسونز الى أعتى نقاده · فلقد تشكل ما يطلق عليه الامريكيون علم الاجتماع الراديكالى كرد فعل لنظرية بارسونز فى علم الاجتماع · فنادرا ما يوجد علم اجتماع ماركسى فى أمريكا · فقد حل محله علم الاجتماع الراديكالى · وبالرغم من تأثره بماركس ولينين وغيرهم من المفكرين الاشتراكيين ، فانه قد ظهر حقـــا كحركة معارضة للنظرية العامة فى عـلم الاجتماع ، ولعلماء الاجتماع الذين يحاولون أن يحتفظوا بقيمهم الشخصية منفصلة عن نتائج بحوثهم، وللموضوعية فى العلوم الاجتماعيـة ، واستخدام مفاهيم مثل التوازن والضبط والتكامل والوظيفة وللأهميـة التى اضفيت على القيم فى التفسير

السوسيولوجى ·وهذا هو السبب فى أن زعيم انصار هذا الاتجاه الذى يطلق عليه علم الاجتماع غير المرتبط بالنظام المستقر anti-establishment sociology قـــد رأى فى بارسـونز تجسيدا لـكل ما يرفضـونه · لقد كرسوا انفسهم لاقامة علم اجتماع جديد يركز على دراسة الصراع الاجتماعى ، والمشكلات الاجتماعية ، وتركز القوة وما يترتب عليها من قهر وكذلك الصراعات الطبقية ومظاهر عدم المساواة الاجتماعية · وبناء على ذلك ظهرت معارضـة حادة لبارسونز فى اعمال رايت ميلز بصـفة خاصة الذى بدأ هذا العلم الجديد وحث عليـه(١٣) · كما توجد هـذه المعارضة فى اعمال هوروتز(١٤) Horowitz وجولدنر(١٥) Gouldner الذى يعتبر اكثر خلفـاء ميلز شهرة ولقـــد كان لسنوات عديدة زعيم النقـاد الامريكيين لنظرية بارسونز(*) · ومن الاشـياء ذات الدلالة أن يكرس جولدنر نصف كتابه « الأزمة القادمة لعـلم الاجتماع الامريكى » لمناقشـة فكر بارسونز · ورأى جولدنر أن التحليـل النقـدى لأعمـال بارسونز هو بداية احيـاء الفـكر السوسيولوجى ، وهو أمر يدل على وعيه بفقر « علم الاجتماع الجديد » · ولهـذا فاننى اذهب الى أن عـلم الاجتماع الراديكالى لم يكن ليوجد ، لولا أن بارسونز قد اعانه على أن يكون علما لابارسونزى Anti-Parsonian .

ثانيا : الوظيفية فى نظرية بارسونز

يذهب الدارسون والنقاد الى الربط بين بارسونز وبين مدرستين معاصرتين من مدارس الفكر السوسيولوجى هما : الوظيفيةFunctionalism ونظرية الاتفاق العام على القيم Value Consensus Theory .

يعتقـد غالبا أن نظرية بارسونز تعـد اغلب المحاولات تعبيرا عن

(*) يمثل كتاب جولـدنر « الأزمة القـادمة لعلم الاجتمـاع الغـربى » The Coming Crisis of Western Sociology الصـــادر عـــام ١٩٧١ أهـم الكتب التى اثارت موجة نقدية تجاه نظريات بارسونز فى حقبة السبعينات · وتعتبر الحركة النقدية التى قادها جولدنر منذ ظهور هذا الكتاب امتـدادا لحركة النقد التى بـداها رايت ميلز فى الخمسينات والستينات .

انظر تقييمـا للحـركة النقـدية فى علم الاجتماع فى : احمـد زايـد ، **علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية** ، المشار اليه فيما سبق .

المترجمان

الوظيفيـــة ، كمـا تتمثـــل فى تراث هربرت سبنسـر ، ودوركايم ، ومالينوفسكى · ذلـك لأن بارسونز قـــد استفاد ـ فى تطـوير الاطـار التصورى الخاص بالتحليل النسقى ـ استفادة عظمى من فكرتى البناء والوظيفية · كما أن بارسونز قـد قدم بعض القضايا ـ التى تعد الآن قديمة ـ عن فائدة الاتجاه الوظيفى فى العـلوم الاجتماعيـة · غير أن رؤية نظرية بارسونز على أنهـا صورة بدائية من الوظيفية يعـد ضربا من التبسيط ،وينسحب ذلك على ارجاع كل نظرية بارسونز الى الوظيفية · فالحقق أن الوظيفية أصبحت جانبـا ثانويا فى فكر بارسونز بعد تطور أعماله كما انه لا توجد صورة وحيـدة من الوظيفية على أى حال ، وانما هناك صور متعددة منها · وقـد عـدد ميلفورد سابيرو Melford Sapiro حوالى اثنتى عشـرة صـورة الوظيفية فى عـلم الاجتمـاع الامريكى فقط(١٦) · فلا يجب أن نخلط وظيفية مالينوفسكى بوظيفيـة ميرتون ، أو تلك الأخيرة بوظيفية بارسونز(١٧) ·

هناك ثلاث خصـائص تتميز بها وظيفية بارسونز · أولا وقبل كل شىء فهى **وظيفة نسقية** systemic functionalism فنمط التحليل الوظيفى الذى قدمه بارسونز لا يبدأ ـ على خـلاف مذهب مالينوفسكى والى حد ما ميرتون ـ ببعض الوحدات الثقافيـة والاجتماعيـة ثم يستطرد بعـد ذلك فى تفسير طبيعة هـذه الوحـدات ووجودها واستمرارها من خلال أسهامها فى التنظيم الاجتماعى وفى الحياة ككل · على العكس من ذلك فقد انطلق بارسونز فى الكل ناظرا اياه على أنه نسق ، محللا الظروف اللازمة لبقـائه ولأدائه لعمله الوظيفى وتطـوره وتغيره · ومن خـلال هـــذا المنظور فان مفهـوم وظيفة يشير **الى الحـلول المتعـددة لمركب معين من المشكلات التى يستطيع النسق أن يتكيف معها من أجل بقائه ،** ويشتمل البقاء هنا على الاستمرار والتطـور والتحول · وحتى هذا الحد فان التحليل الوظيفى عند بارسونز يتكون من اقامة **تصنيف للمشكلات التى يجب** أن يحلها النسق من أجل أن يوجد ويستمر ·

ولقـد اشتق بارسونز هذا المفهوم للوظيفية من علم البيولوجيا · فقـد اعتمد على البيولوجيا فى الادعـاء بأن فكرته عن الوظيفـة ترتبط

بالضرورة بوظيفة النسق الحى ، سـواء اكان نسـقا بيولوجيا أم نسق فعل· ففكرة النسق الحى Living Systemلا يمكن أن تستخدم دون ربطها مباشرة بفكرة الوظيفـة · ويؤدى هـذا الى نمطين من التحليل · الأول تحليل الابنية المـكونة للنسق مع تحديد العلاقات بينها ؛ والثانى تحليل العلاقات بين النسق وبيئته · ولقـد استهدفت وظيفية بارسونز ـ سواء ركزت على الاساليب التى يعمل بها النسق من الداخل أو على علاقاته بالانساق المحيطـة ـ الى تحديد **حاجات** النسق **كنسق** والوسـائل التى يمكن من خلالها اشباع هذه الحاجات ·

ويساعد ذلك على توضيح ما قصده بارسونز عنـدما ذهب الى أن فكرة الوظيفة لا ترتبط بالبناء وانمـا ترتبط بالنسق · ولقـد أدت هاتان الفكرتان الى فكرتين اخرتين هما فكرة البنـاء وفكرة العملية · وتشير فكرة البناء الى الجـانب الاساتيكى الثابت للوظائف ، أما العملية فانها تشير الى الجانب الدينامى ، وهى تعتبر فى نظر بارسونز نتيجة منطقية ضرورية لفكرة الوظيفة مثلها فى ذلك مثل فكرة البناء ·

ثانيا : لا تهتم وظيفيـة بارسونز بأنساق الفعـل فقـط ولكن تهتم أيضا بالانساق داخل الفعل · فقـد اهتم بارسونز لأمـد طويل ـ على عكس الاعتقـاد الشـائع ـ بالعـلاقات بين التحليل الوظيفى والتغيـر الاجتماعى · وفضلا عن ذلك ، فان هـذا الامر يفسر لمـاذا تغير تفكير بارسونز بصـدد الوظيفية الى حد ما · فقـد اعتقد فى وقت ما بأن علم الاجتماع ـ الذى لم يكن قـد قطع شوطا طويلا فى صياغة نظرية دينامية أصيلة ـ يجب أن يركز نفسـه حول نمـط مفضل من النظرية التى أطلق عليها « البنائية الوظيفيـة » · ونظر بارسونز الى فشـل محاولة باريتو فى تطوير نظرية نسقيـة دينامية على أنه درس ومثـال يجب تحاشيه · ولذلك فانه فى عـدم وجـود المرونة والثراء اللتين تتمتع بهما النظرية الدينامية ، بدا لبارسونز أن النظرية البنائيـة الوظيفية يمكن أن تتوافر فيها ميزة الاطـار التحليلى الدقيق ، الذى تتمتع به علوم أخرى ؛ فنجاح البيولوجيا كعلم يهتم بدراسة الكائنات الحية ، كأنساق حية ، يعتبر بالنسبة لبارسونز شيئا ذا دلالة بالنسبة للعلوم الاجتماعية(١٩) ·

واكتشف بارسونز بعـــد ذلك أنه يستطيع أن يستفيـد من بعض أجزاء علم السبرنطيقا ، وعـلم المعلومات ونظرية التبادل · فقـد مكنته هـذه العـلوم من أن يضفى طابعا ديناميا على نموذجه عن أنساق الفعل والانساق الاجتماعية ، من خلال تقديمه لفكرة الانساق التى بينها شبكة من التبادل المزدوج ، وفكرة وسائل التبادل ، وفكرة المخرجات والمدخلات، وفكرة التـدرج السبرنطيقى · وكنتيجـة لـذلك ذهب بارسونز الى أن البنائية الوظيفية ما هى الا مرحلة وحيدة فى تطـور النظرية فى العلوم الاجتماعية · واعتقد أن النموذج الذى طوره منـذ عام ١٩٥٢ قد تجاوز هذه المرحلة ·

وفى هـذا النموذج الجديد انسلخت فكرة الوظيفة عن فكرة البناء وبدلا من ذلك ارتبطت بمفهوم النسق ، الذى وضعها فى مكانها الصحيح عنـد أعلى مسـتويات التحليل عموميـة · وفضـلا عن ذلك فان فكرة الوظيفة أدت فى هـــذا النموذج الجـديد الى تصنيف أنشطة النسق · وتنقسم هـذه الأنشطة الى مجمـوعتين : عمليـات التفاعل والتبـادل بين الابنيـة داخـل النسق ، وعمليـات التفاعل والتبـادل بين النسق والانساق الأخرى التى تكون بيئة ·

ولقـد انقسمت الوظائف فى كل من المستويين ـ كما رأينا ـ طبقا لمخطط الوظائف الاربعـة (أ ت ك ن) · ويعتقـد بارسونز أن نموذجه بهذه الطريقة قـد ربط التحليل الوظيفى بالطابع الدينـامى المتغير لـكل أنساق الفعل(٢٠) ·

ويتضـح من ذلـك أن بارسونز ، على خلاف الكثير من علمـاء الاجتمـاع ، لم يعتبر النظرية الوظيفيـة نظرية اجتماعية بحتـة · على العكس من ذلك فان رأيه يذهب الى أن أية محاولة علميـة تتضمن ضربا من التحليل الوظيفى بشكل أو بآخر · لقد نظر الى التحليل الوظيفى على أنه نوع من المنطق أو اللغة العلمية · وبصـورة أدق فقد نظر اليه على أنه مجموعة من الأساليب اللغـوية التى يستخدمها المنطق العلمى لينتقل

بالتحليـل من مستوى من التعميم الى مستوى اعلى ليصـل الى أعلى درجات الدقة والعمومية ٠

وبهذا فان التحليل الوظيفى ـ فى مفهوم بارسونز ـ لا يعـد شيئا جامـدا فى ذاته ٠ أو أنه يتخذ صورة واحـدة ٠ فكلما تطور العـلم فى مراحل مختلفـة ، فان التحليل الوظيفى الذى يستخدمه يمكن أن يخضع لاعادة الصـياغة باستمرار ٠ ولم يبتـدع هـذا الفهم الدينامى المرن للوظيفية الا عدد قليل من علماء الاجتماع ٠

أما الخاصية الثالثة لوظيفية بارسونز فانها ـ فى نظرى ـ تقلل من قيمتها ٠ انها **الوظيفية التطورية** ٠ فقد عارض بارسونز لوقت طويل التطورية ، ولكنـه تبناها بطريقة فجائية كما رأينا من قبـل ٠ غير أن بارسونز ـ ودون أن يعرف ـ كان دائمـا تطوريا ولقـد تلونت وظيفيته بهذا الى حد كبير ٠ فقد اعتبر ـ على سبيل المثـال ـ المجتمع الصناعى الحـديث أكمل وافضل صـورة للنسق الاجتمـاعى لانه يتضمن أعلى درجات التباين الاجتمـاعى ٠ ان المجتمع الصناعى بالنسبة للمنظرين فى العلوم الاجتماعية يعتبر أفضل حقول الملاحظـة ، ذلك لأن الوظائف التى ماتزال مختلطـة فى المجتمعات الأقـل تطورا تظهر بوضـوح فى المجتمعات الصناعيـة ٠ وبذلك فان مجتمعـات ما قبـل الصناعة تعتبر مفيـدة لأغراض المقارنة ، ولـكن المجتمع الصناعى هو المعمل الرئيسى لعلماء الاجتماع ، كما كانوا يشعرون لوقت طويل ٠

ولهذا ، فانه منذ بداية عمله الاكاديمى ، أو بالأحرى قبل أن يتبنى موقفا تطوريا ، شارك بارسونز علماء التطورية من القرن التاسع عشر الاعتقـاد بأن المجتمع الصناعى هو اعلى صـور المجتمع تقـدما لأنه اكثرها تعقيدا ٠ وبالنسبة لبارسونز فان المجتمع الصناعى يعتبر أيضا نهاية طريق طويل ، انه تراكم لعملية بطيئة من النضج ٠ ويعـد المجتمع الصناعى اكمل صـور المجتمع لان التنظيم الاجتماعى والرشد الانسانى يجدان اكمل تعبير لهما داخل هذا المجتمع ٠

ومن هنا يظهر ـ فيما اعتقد ـ الاتجـاه الاستاتيكى ، الذى غالبا ما نسب الى بارسونز ، فهذا الاتجـاه لم ينبع من فهمه للنزعة الوظيفية

كما يفهم البعض خطأ · فالمحقق أن وظيفية بارسونز تعتبر فى حـد ذاتها اتجاها ديناميـا · غير انهـا انحرفت عن مسارها الصحيح من خـلال التفسير التطورى للمجتمع الصناعى على أنه الذروة النهائيـة التى تم الوصول اليها بعد صعود طويل وصعب · فمن خـلال حوادث التاريخ ، رأى بارسونز ـ مثله مثـل كونت وسبنسر ـ اتجاها اساسيا للتطـور من المجتمعات البدائية غير المتباينـة ، الى المجتمعات القديمة والوسطى الى المجتمع الصناعى الحديث · وهذا الأخير هو النتاج النهـائى لعملية طويلة من الاكتمال والنضج · فـلم يستطيع بارسونز ـ أو انه لم يرد ـ أن يوضح صـورة المجتمع الذى يمكن أن يتطور الى صورة أخـرى دون أن يرتد الى مرحلة اوليـة من التطـور · فالمؤكد أنه يعتقـد أن المجتمع الصناعى يحتاج الى الاكتمال من وجـوه عديدة ، ولكنه يجب أن يحقق ذلك خلال التطور وفق القواعد الموجـودة ، وليس من خـلال التغيرات الجذرية · ويفسـر ذلك لنا لـماذا لم يهتم بارسونز بالتطورات الممكنة للمجتمع ما بعد الصناعى ، الذى تحدث عنـه كثير من علماء الاجتماع بالفعـل وقدموا تصوارتهم عنـه ـ وهو عنـدهم يتصف بأنه حضـارة فراغ ، به تعليم دائم واشـكال جديدة من وسائل الاتصـال ، وأساليب جديدة لتصور الواقع والحياة الاجتماعية(*) ·

ولقد منعت الوظيفية التطورية ـ كما أشرنا من قبـل ـ بارسونز من الاهتمام بالتحليل المقـارن للمجتمعات الرأسماليـة والاشتراكيـة ، والاسـهام الذى يمكن أن تقدمه مثـل هـذه الدراسـات لاثراء المعرفة التاريخية · وكنتيجة لهـذا اكتفى بارسونز بدراسـة المجتمع الرأسمالى فقط دراسة مستفيضة ·

(*) ظهرت فكرة مجتمع ما بعد الصناعة Post-industrial Society لوصف المجتمعات التى وصلت الى مرحلة عالية من التصنيع بصرف النظر عن هويتها الأيديولوجية واعتقد أصحاب هذه الفكرة ـ من أمثال ريمون آرون وبيرنباوم والن تورين ـ أن هناك نمطاً جديداً من المجتمعات آخذاً فى التشكل والظهور وهو مجتمع ما بعد الصناعة أو المجتمع التكنوقراطى الذى تسيطر عليه الآلية والوفرة ، ويعرف اشكالا من العلاقات الاجتماعية والصراعات تختلف عن تلك التى عرفها المجتمع الصناعى القديم الذى كان موجوداً طيلة القرن الماضى وحتى منتصف القرن الحالى : أنظر حول فكرة المجتمع الصناعى وضمن مراجع أخرى :
A. Tourain, The Post-Industrial Society, N.Y., 1971.

المترجمـان

وحظيت وظيفية بارسونز بكثير من النقد · حيث جعلها كثير من علماء الاجتماع هدفهم الرئيسى · ومع ذلك ففى اعتقادى أن اوجه القصور فى نظرية بارسونز فى علم الاجتماع تنبع من نزعته التطورية الكامنة فى تحليلة الوظيفى اكثر مما تنبع من الوظيفية ذاتها ، وانها تحتاج الى اعادة صياغة · كما أن القول بأن بارسونز يميل الى الاتجاه المحافظ لايرتبط بالوظيفية · لقد استنتج جولدنر Gouldner أن النزعة الوظيفية فى علم الاجتماع تحمل فى داخلها وجهة نظر محافظة(٢١) · غير أن رايه ليس مقنعا · حيث يمكن القول أيضا أن الوظيفية ترتبط بسهولة بالاتجاه التقدمى Progressivism أو حتى الاتجاه الراديكالى مثل ربطها بالاتجاه المحافظ ، تماما كما يحدث فى دراسة الصراع حيث تسير جنبا الى جنب مع وجهة النظر الاستاتيكية كما توضح اعمال لويس كوزر(٢٢) · فاذا بدا بارسونز اليوم محافظا فى نظر علم الاجتماع الماركسى أو الراديكالى أو النقدى ، فانه قد كان فى وقت من الأوقات اكثر ليبرالية وتقدمية من الكثير من زملائه الامريكيين ـ وحدث هذا عندما كان وظيفيا خالصا ·

ثالثا : سوسيولوجيا القيم عند بارسونز

يثير ارتباط بارسونز بسوسيولوجيا القيم قدرا كبيرا من الالتباس لا يقل عن ذلك الناشىء عن ارتباطه بالوظيفية · فغالبا ما يقال أن علم الاجتماع الذى قدمه بارسونز يعطى للقيم دورا رئيسيا فى تحديد الحياة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعى · وهنا نشأت مقارنات بين النظرية الماركسية وبين ما يسمى بالنزعة المثالية الذاتية لدى بارسونز ، أو بين نظريات الصراع ونظرية الاتفاق العام التى قدمها بارسونز · ويحتاج هذا الموضوع الى قدر من الفحص عن قرب ·

أولا : ماذا عن النزعة الذاتية التى يهتم بها بارسونز ؟ لقد اكد بارسونز فى تحليله للفعل الاجتماعى الطابع الرمزى ـ اضفاء المعنى على الأشياء ـ للفعل البشرى ، وذلك على عكس النظريات السلوكية والوضعية · ففى اعتقاد بارسونز أن الموضوعات التى يرتبط بها الفاعل أو يتفاعل معها يتم استيعابها وتفسيرها من خلال عالم رمزى يضفى

عليهـا المعنى الذى تتضمنـه · فالفرد لا يرتبط ارتباطا مباشرا وسريعا بالأفراد والموضوعات المحيطة به ولا حتى بنفسه ؛ فكل العلاقات القائمة مع الموضـوعات الأخـرى ومع ذات الفرد هى علاقات يتم اقامتهـا عن طريق الرموز · ففى نظر بارسونز أن الافراد والموضـوعات الخارجية ليس لهما تأثير مباشـر على الفعل الاجتماعى ، فالفاعل دائما ما يعيد تفسير الأشـياء ويضفى عليهـا معنى معينـا · ويكشف ذلك عن كيفية اختلاف السلوك البشـرى عن سلوك الحيوانات الأخرى · فنطاق القيم والمعتقدات يمثل حلقـة كبرى فى سلسلة التطـور بين الانسـان العاقل homo sapiens والأنواع الأخرى من الحيوانات · وهذا هو السبب فى أن النسق الفرعى الثقـافى الخاص بالقيم والرموز والمعـرفة له اهميـة بالغة : انه مصدر كل المعانى لأى فاعل اجتماعى ·

واكد بارسونز على الطابع الكلى لمجموعة الرموز والقيم الى حـد أنه جرد الشخصيـة من أى ذاتية حقيقيـة · فكما ناقشت فى الفصـل الخـامس ، فان الغرائز والدوافع الغريزية تختفى من نسق الشخصيـة كما وصـفه بارسـونز ، لتفسح الطريق امـام عنصـرين ذاتيين : ـ استعدادات الحاجة التى يتم تعلمها نتيجة لاستدماج المعـايير والادوار والقيم والمعرفة ؛ ووظيفـة تحديد الهـدف (المرموز اليهـا بالرمز ت) التى قد تتحول فى النهاية الى المركز الرئيسى للشخصية · واستعدادات الحاجة هى بالضـرورة البيئـة الاجتماعية الثقافيـة التى يستدمجهـا الشخص ، وبناء عليه فان العنصر الذاتى الوحيد الذى يظل داخل الفاعل هـو تحـديد الاهـداف ، وحتى من الصعب الجزم بانهـا شخصيـة أو اجتماعية · حقيقة أن بارسونز قـد ركز على وجهة نظر الفاعل ، وليس البناء الاجتمـاعى ، كنقطة انطـلاق لنظريتـه · غير أن الذات الفاعلة قد تم تعريفهـا كفاعل اجتماعى ، حيث تتولد من منطلقات الفعـل فيـه خلال استدماج البيئة الاجتماعية ـ الثقافية · فاذا كان بارسونز يوصف ـ من الناحيـة المنطقية ـ بانه اختزالى reductionist (*) فانه يختزل

(*) يستخـدم مفهـوم الرد (أو الاختزال) المنطقى reductionism للاشـارة الى القـدرة على استخدام مناهج البحث وتحليل العـلاقات وصياغـة الفـروض والنظريات =

على اساس اجتماعى وليس على اساس سيكولوجى · وهذا هو السبب فى أن علمـاء النفس لايشعرون بأن نظرية بارسونز تحتـوى على شىء مفيد بالنسبة لهم ·

أما عن النزعة المثاليـة فى نظرية بارسونز فقـد تم التعبير عنهـا من خـلال فـكرة التدرج السبرنطيقى والتى تشتمل ضمنيـا ـ حسبما استخدمها بارسونز ـ على أن القيم هى المحـدد النهـائى لكل ضروب الفعل · ويمكن انتقـاد بارسونز هنا بانه قـد اشتق نتـائج مبسطة من نموذجه النظـرى (لاستخدام التـدرج السبرنطيقى) ؛ فهـذا التدرج يحتوى على الطاقة والمعلومات ، ولم يول بارسونز سوى اهتمام طفيف للتفاعل بينهمـا · ويدل التـدرج السبرنطيقى ضمنيا على **أن الفعل هو النتـاج المشـترك للعـوامل التحكميـة Conditioning Factors والعوامل الضابطة Controlling Factors** · وتعنى العوامل التحكميـة دافعية الفعل والقيود المفروضة عليه وكليهما مشتق من الطاقة التى تتولد فيما يمكن أن يسمى بالبنـاء التحتى لـكل نسق من انساق الفعـل · أما العوامل الضابطـة فانهـا تشير الى تأثيـر المعلومات التى تظهر على المسـتوى الايديولوجى فى البناء الفوقى ـ تنظيم الفعل فى النسق والتوجيـه العام لهـذا الفعل · ويعتبر هذا الوجود المشترك لهـذين النوعين من العوامل شيئا ضـروريا لاى نسق من النـوع السبرنطيقى ومن ثم لأى نسق من أنساق الفعل · ويوجد بين البنـاء الفوقى والبناء التحتى أخـذ وعطاء دائمـان اثنـاء تبادل الطـاقة والمعلومات بين الاجـزاء المـكونة للنسق السبرنطيقى ·

غير أن هـــذا بالضبط هو الشىء الذى لم يظهر فى نسق الفعـل

=

والقوانين ، على اساس الافتراض بأن المناهج والأسباب والقوانين الملائمة لتفسير طائفة معينة من الظواهر تلائم أيضا ظواهر اخرى ، اى أن هناك نوعا من الارتباط بين هـذين النوعين من الظواهر · ومن الأمثلة على ذلك محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية على اساس قوانين العلوم الطبيعية ، أو تفسيرها على اساس الظواهر الاقتصادية · انظر :
عاطف غيث (مشرف على التحرير) **قاموس علم الاجتماع** ، الهيئـة المصرية العـامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٧٨ · المترجمـان

بالصورة التى قدمها بارسونز · لقد رأى بارسونز ضرورة الحاجة الى تأكيد دور القيم المتعلمة فى الفعل البشرى ، وذلك لانزعاجه الشديد من النزعة السلوكية التى كانت سائدة فى العلوم الاجتماعية آنذاك · ولقد أدى به ذلك الى أن يمسخ النموذج النظرى الذى قدمه ، مستخدما اياه بطريقة مشوهة مع تأكيد كبير على دور العوامل الضابطة تاركا العوامل التحكمية جامدة فى الخارج · ومن ثم فقد ترك نفسه عرضة للاتهام بالمبالغة فى أهمية سيادة القيم على حساب عوامل أخرى ـ مادية وسيكولوجية واجتماعية ـ يعتمد عليها الفعل البشرى الفردى والجماعى ·

أما النقد الآخر الذى يوجه لمعالجة بارسونز للقيم فينحصر فى أنه قد رسم صورة لمجتمع يسيطر عليه الاتفاق العام على القيم ، ومن ثم يسود فيه النظام العام ، والتناغم والاستقرار · والحقق أن بارسونز قد أدرك أنه اخذ وجود النظام الاجتماعى العام كنقطة انطلاق فى تفكيره · غير انه أكد ايضا أن النظام لا يمثل صورة مثالية ولكنه يمثل مشكلة · والسؤال الخاص بالنظام العام ـ كما ظهر فى تراث هوبز ـ يتساءل عن امكانية وجود المجتمع فى المحل الأول ـ لماذا يعيش الناس سويا فى مجتمع دون أن يحطموا بعضهم البعض ؟ لم يصل الفلاسفة ـ على ما ذهب بارسونز ـ الى جواب مقنع لهذا السؤال · ولقد اعتبر بارسونز أن الحلول التى قدمها كل من فرويد ودوركايم وميد وكولى تمثل أهم اكتشاف فى العلوم الاجتماعية · لقد ذهبوا الى أن اساس الحياة الاجتماعية يكمن فيما اسماه بارسونز بالالتقاء بين التشكل النظامى للقيم والمعايير فى الاطار الاجتماعى واستدماج نفس القيم والمعايير داخل ذاتية الفرد · ويفسر الظهور المشترك لهاتين العمليتن ليس فقط وجود المجتمع البشرى وانما يفسر أيضا الاستقرار النسبى لهذا المجتمع · ولقد بدا هذا الحل لبارسونز على أنه مقنع ومن ثم فقد جعله حجر الزاوية فى نظريته العامة للفعل ·

·· وظهرت تفسيرات عديدة لهذا · فقد أتهم بارسونز ، على سبيل المثال ، بالقول بأن الموقف الاجتماعى الكامل والمرغوب فيه هو الموقف

الذى يظهر فيه توازن كامل بين التشكل النظامى واستدماج القيم ـ وهى حالة من الاستقرار التـام · ومع ذلك فلايوجد دليل يبرر هـذه التهمة · على العكس من ذلك ، فان بارسونز غالبا ما قال بأن هذا التوازن الكامل مستحيل الوجود فى الواقع الملموس وهو اكثـر استحالة فى المجتمعات التعددية Pluralist عنهـا فى المجتمعـات الأقل تباينـا · وفى نظرة أن التعادل بين النظام الاجتماعى ووعى الفرد يمكن فقط تحقيقة بقدر معين· وهذا القدر يختلف من شخص الى آخر ، ومن نظام الى آخر ومن مجتمع الى آخـر ·

وعلى نفس المنوال اتهم بارسونز ايضـا بالقـول بأن كل أشـكال الانحراف ناتجة عن التنشئة الخاطئة · ومرة أخرى اعتقد أن هـذا يمثل تشويها لفـكر بارسونز · لقـد ذهب بارسونز ـ على العكس من هذا ـ الى أن الانحـراف ينتج عن الحقيقـة التى مؤداها أنه لا يمكن اطـلاقا تحقيق توافق كامل بين القيم الراسخة وبين وعى الفـرد · ويترك هـذا مجالا لقدر من التباين فى أسلوب الفاعلين الافراد فى استدماج الثقافة السائدة ودرجة هذا الاستدماج · وتحـدث أشياء كثيرة اثنـاء عملية التنشئـة الاجتماعيـة تغيـر من مجـراها بطرق لا حصـر لهـا يمكن أن تؤدى الى الانحـراف · وما وجـده بارسـونز مثيرا للتسـاؤل ، ليس وجـود الانحـراف ذاته وانمـا لمـاذا تعتبر التنشئـة عاملا مؤثرا وفعـالا كما هى دائمـا بالرغم من وجـود كل مخاطر الانحـراف ـ تماما مثلما رأى أن الصراع ليس فقط الذى يحتـاج الى تفسير ، وانما لماذا يستمر النظام العام رغم وجود الصراع ·

وفى رأيى أن بارسونز يمكن أن ينتقد لا لانه قـد القى ضوءا على الأسس السيكولوجية للاتفاق العـام ولكن لانه قد وقف عند هـذا الحد ولم يتقدم بعده · فهنـاك ثلاثة اتجاهات كان يجب أن يتحرك فيها ، ولم يفعل · أولا : كان بامكانه أن يستكشف المركب الكلى للعوامل البنائيـة فى المجتمع التى يرتكز عليها الاتفاق العـام والتى يتدعم من خلالها : مثل تدرج القوة والسلطة ، مظاهر اللامساواة الاقتصـادية ، الطبقات الاجتماعية ، واشكال كثيرة من الاغتراب · حقيقـة أن بارسونز قد مهد الطريق الى مثل هذا التحليل فى مناقشته للقـوة والتأثير ، واقترب فى

بعض الأحيان من اكمال هذا التحليل ، غير أنه لم يفعل ذلك أبدا ٠

ثانيا : ان تحليل الاتفاق العـام يجب أن يكتمل بتحليل للصراع ٠ فلم يجد بارسونز مكانا فى نموذجه النظرى لدراسـة الصراع كما ذهب النقاد بحق ٠ فهنـاك فى الواقع الاجتماعى دائمـا الثبـات والتغير ، الاستمرار والتقـدم ، التعاون والتنافس ، الاعتماد المتبـادل والتنافر ٠ واذا لم يكن هـذا واضحا فى نظرية بارسونز ، فانه ليس واضحا أيضا فى نظرية هؤلاء الذين اعطوا اهمية كبرى لتحليل الصراع ٠

ثالثا : اخـذت النظرية البارسونزية المعايير والقيم كمسلمات دون التساؤل بعمق عن كيفيـة ظهورها وتطورها ٠ ولقد كان بارسونز قادرا على أن يفعل ذلك لو أنه دفع بتحليله للنسق الثقـافى خطوة الى الامام ؛ ففى الانساق الثلاثة الرئيسية الفرعية للفعـل ـ الشخصيـة والانساق الاجتماعية الثقافية ـ يعتبر النسق الثقـافى اكثرها اهمالا ٠ ومما يثير التناقض ، فان اكثر الاشخاص اتهـاما بالمبالغـة فى الاهتمـام بتأثير القيم هـو نفس الشخص الذى لم يول سـوى اهتمـام قليـل بدراسـة القيم(٢٣) ٠ وكانت النتيجـة هى أن ظلت الثقافة ـ فى النسق النظرى الذى قدمه بارسونز ـ عنصرا استاتيكيا ، فى الوقت الذى يجب أن تهتم فيه النظرية العامة للفعل بعمليات التفاعل والتبادل التى من خلالها يتغير النسق الثقافى ٠

رابعا : أهمية نظرية بارسونز والحدود المفروضة عليها

تؤدى بنا هذه الملاحظات الأخيرة الى انتقادات عامة لاعمال تالكوت بارسونز والى تقييم مختصـر لأهمية هذه الاعمال والحـدود المفروضة عليهـا ٠

اذا بدأنا بالنقاط المحسوبة لصالح بارسونز نجد أولا أن بارسونز قد قام بجهد ملحوظ لبنـاء اطار تصورى على أعلى مستوى من التعميم لعلم الاجتمـاع ، اطار يتسم بالمنطقيـة والترابط والاتساق الداخلى ٠ ولقد اعتقد بعض الناس ، من أمثال انصـار علم الاجتماع الراديكالى ، بأن مثل هذا المشروع النظرى مستحيل من الناحية العقليـة ٠ غير انه

يجب على أحد الافراد أن يحاول تقديم هذا المشروع ليجد ما اذا كان مستحيلا أم لا · ولم يصبح مؤكدا الى الآن أن نتيجة مثل هذه المحاولة يجب أن تكون سلبية · وعلى أى حال ، فان النظرية العامة لا يمكن رفضها على اساس عقمها ، كما يرغب شارلز رايت ميلز ، فى الوقت الذى يمكن فيه رؤية مقدار البحوث النظرية والميدانية التى اثارتها فى كل اتجاه ·

ثانيا : خلق بارسونز اطارا نظريا عاما يحوى داخله كل العلوم الاجتماعية ولكن بطريقة تميز بعضها البعض دون تأكيد أولوية أى منها على العلوم الأخرى · والحقق أن بارسونز يمكن أن يعتبر مفرطا فى الطموح عند مارسم خريطته الموسعة للعلوم الاجتماعية ، وربما لم تكن النتائج التى توصل اليها على مستوى التوقعات · غير انه يجب أن نعترف بأن ما فعله بارسونز كان استجابة لحاجة ملحة فى العلوم الاجتماعية المعاصرة · فلقد دخلنا فى مرحلة يجب أن تنظر فيها العلوم الاجتماعية ـ بعد عهد طويل من التخصص والانقسام ـ الى نقاط الالتقاء بين فروعها التخصصية المختلفة بدلا من الاصرار على أوجه الخلاف التى تفصلها · ولقد كان بارسونز من أول علماء الاجتماع القلائل الذين تجاوزوا الحدود الضيقة والتخصص المفرط فى علم الاجتماع الامريكى ، ممارسا بذلك ما دعى اليه كثيرا من انه مستعد للتعاون مع علماء الاقتصاد وعلماء النفس وعلماء الانثروبولوجيا وعلماء السياسة · ومن الممكن الا يثبت الاطار النظرى الذى طوره بارسونز فى النهاية انه اكثر الاطر ملاءمة لاقامة اساس للتعاون بين فروع العلم المختلفة · ومع ذلك ، فانه يبدو لى أن نقطة البداية التى انطلق منها ـ نظرية الفعل ـ تعتبر ذات قيمة ، وهى ترسم الطريق الى الامام · ففكرة الفعل ، كما هى موجودة فى اعمال بارسونز ـ يجب أن تكون مجالا للاهتمام العام فى العلوم الانسانية ·

ثالثا : تعرض بارسونز لمشكلة وجود علم اجتماع مترابط فى كل جوانبه من الناحية النظرية · فكل اعماله هى رفض لفكرة النظريات السوسيولوجية الصغرى التى تنطبق فقط على جزء صغير من الواقع ،

والتى اطلق عليهـا ميرتون « النظريات الوسطى » · وحاول بارسـونز بصفة خاصة أن يستعيد الوحدة النظرية بين علم الاجتمـاع الذى يهتم بدراسة الوحـدات الصـغيرة (Micro) وعلم الاجتمـاع الذى يهتم بدراسة الوحدات الكبرى (Macro) فقد اهتم بالتوفيق بين علم النفس الاجتماعى الامريكى كما يتمثل فى أعمال ميد وكولى وتوماس وبين علم الاجتماع الماكروسكوبى Macroscopic كما يتمثل فى أعمال ماركس وفيبر وباريتو · فالتراث الذى ينبع من كلا الاتجـاهين يعانى من ضعف يمكن تجـاوزه · وبذلك يكون بارسونز قـد قـدم لعـلم الاجتمـاع الامريكى المدخل الخـاص بدراسة المجتمعات كلها وهو المدخـل الذى كان ينقص عـلم الاجتمـاع الامريكى · وفعـل بارسونز ذلك عنـدما زود التراث الثانى (فيبر ـ باريتو) بالاساس السيكولوجى اللازم ·

رابعا ، يجب التأكيـد ـ خـلافا لمـا يقال فى الغـالب ـ على أن بارسونز يكن احتراما شديدا للبحث الامبيريقى · فلا يمكن القـول بأن نظريته تطورت فقط من خـلال الاستنباط المنطقى · لقد كان دائمـا على وعى بما يمـكن أن يتعلمه من بحوثه الخاصـة ومن بحوث الآخرين · ولقـد كانت اغلب نقـاط التحول فى تطـور فكره استجابة بطريقـة أو باخـرى لاعمال امبيريقيـة · واكثر من هذا ، فان بارسونز قـد كشف احيانا عن اعتقـاده بأن البحث الامبيريقى هو الاختبار النهـائى لصدق أى نموذج نظرى ·

واذا انتقلنا الآن الى الجانب الآخر (النقاط المحسوبة على بارسونز)، فاننا نجد انه بصرف النظر عن اوجه النقد التى لخصناها فى هذا الفصل وفى فصـول سابقـة ، فان النقـاط المحسوبة على بارسونز تفوق تلك النقـاط المحسـوبة له والتى لخصناها توا · لقـد كان على بارسـونز أن يدفع ثمنا غاليـا لمـا حاوله من استعادة الترابط لعـلم الاجتمـاع وللعلوم الاجتماعيـة المختلفة · لقـد كان عليه أولا وقبـل كل شىء أن يبدع نموذجا تحليليا على درجة من العمومية أفقـدته قوته التفسيرية · فالحقيقة أن النمـوذج النظرى لبارسونز يعتبر نموذجا تصـوريا اكثر منه نموذجا نظريا ·فهذا النموذجيشبه ألواحا متراصة من المقولات المنطقية

المنقحة الاعداد تقوم احداها فوق الأخرى ، اكثر من كونه نظرية واقعية قادرة على تقديم تفسير لأى مجموعة من الظواهر · فلا يوجد الا قدر قليل من العلاقات السببية فى نموذج بارسونز ، على عكس النسق الماركسى فى التفسير · وهذا هو السبب فى انه من الصعب اقامة مقارنات بين النموذج التفسيرى لبارسونز والنموذج التفسيرى لماركس ، هذا من ناحية ؛ ومن الناحية الأخرى فان النموذج التفسيرى الذى قدمه بارسونز يمكن أن يشتمل ـ ربما لأنه أميل الى الطابع الصورى منه الى الطابع السببى ـ على جوانب من التفسيرات المستغرقة فى نماذج أخرى ، ومنها الماركسية · فنموذج بارسونز يزود عالم الاجتماع باطار فكرى يمكنه من أن يحدد ملاحظاته (مشاهداته) وينظمها ، بحيث يمكن أن تفسر بعد ذلك بطرق عديدة · وكنتيجة لذلك اصبح النموذج التفسيرى الذى قدمه يشبه اطارا تصوريا بدون مضمون · لذلك فان هناك قدرا من الحقيقة فى نقد جورج هومانز لبارسونز حيث كتب يقول :

« لا يستطيع أى علم أن يتقدم الى الامام بدون نسق من المقولات التحليلية ، أو بدون اطار تصورى ، ولكن ذلك فى حد ذاته ليس كافيا لاثراء العلم بقوة تفسيرية · فالاطار التصورى ليس نظرية · ان العلم يحتاج أيضا الى مجموعة من القضايا العامة عن العلاقات بين المقولات التحليلية ، لانه بدون هذه القضايا يصبح التفسير مستحيلا · ليس هناك تفسير بدون قضايا عامة ، غير أن النظرية السوسيولوجية الحديثة تقتنع فقط بتأسس اطارها التصورى ، وهو امر غير كاف لاقامة النظرية »(٢٤) ·

ثانيا ، شعر بارسونز انه مضطر لاكتشاف نفس النموذج التحليلى مرات عديدة ، نفس الوظائف الاربعة دائما وفى كل مكان · والذى قدم هذه الوظائف الاربعة اصلا هو روبرت بيلز R. Bales اثناء تنظيمه لمشاهداته عن مشاركة الفاعلين ذى الجماعات الصغيرة · فاذا كان القول ، كما ذهب بيلز ، بأن هذه الوظائف الأربعة تتقابل مع الابعاد الأساسية للنسق الاجتماعى للجماعات الصغيرة ، اذا كان هذا القول صحيحا ، فان بارسونز قد اعتقد أن هذه الوظائف يجب أن توجد فى أى

شكل من أشكال النسق الاجتماعى · ولكن للوصول الى هذه النتيجة كان عليه أن يحلق فى الخيال باسلوب يقوم على منطق التداعى association وهو اسلوب يعد ضعيفا بالنسبة للدقة المنطقية التى كان بارسونز يسعى الى تحقيقها دائما · واكثر من هذا ، فان هذا الاسلوب المنطقى قد اضطر بارسونز لأن يفرض أطاره النظرى على الواقع ، مطوعا هذا الواقع لخدمة نموذجه التحليلى ·

وبناء على ذلك سلم بارسونز أيضا بوجود مصادرتين هما : أن أى نسق من انساق الفعل يشتمل على الوظائف الاربعة الموجودة فى النموذج التحليلى الذى قدمه بيلز ؛ وان الصياغة التى قدمت بها هذه الوظائف كافية لتصبح المحور الاساسى لنظرية عامة فى الفعل · ولقد كان اكثر ضمانا واكثر ارتباطا بتراث البحث العلمى لو ان بارسونز تقدم فى عمله بطريقة استقرائية · فقد كان بامكانه مثلا أن يقارن بين الطرق العديدة التى من خلالها عرف الباحثون فى مجالات غير مجال سوسيولوجيا الجماعات الصغيرة (كسوسيولوجيا التنظيم وعلم الاجتماع الصناعى وعلم النفس التجريبى على سبيل المثال) الحاجات الوظيفية فى الانساق التى يدرسونها ، وبالتالى يستطيع أن يستخلص منها بعض السمات المشتركة · ان هذا هو الاتجاه الذى تبناه فى كتابه **بناء الفعل الاجتماعى** ، والذى كون فيه نظرية الفعل من خلال تجميع اجزاء من كتاب مختلفين · ومما يؤسف له انه لم يتبع نفس الاجراء بعد ذلك عندما حاول أن يطور نظريته خطوة اخرى · ولو انه فعل ذلك لاكتسبت نظريته قوة أكبر ولاصبحت تقوم على اسس اكثر صلابة ·

ولقد أخذ بارسونز الطريق الاقصر مرة أخرى عندما استفاد من علم الاقتصاد الكلاسيكى ، ويجب أن نتعامل مع هذه الاستفادة ايضا بقدر من الحذر · ذهب بارسونز ــ متبعا نفس المنطق عندما استعار المقولات التحليلية التى قدمها بيلز ــ الى أن المفهومات التحليلية المستخدمة فى علم الاقتصاد ، يجب أن تستخدم أيضا فى تحليل أى نسق من أنساق الفعل · نحن لا نستطيع أن ننكر أن بارسونز قد استفاد استفادة جيدة من

النماذج التحليلية للتبادل التى استعارها من علم الاقتصاد · ولكن كانت النتيجة أن نسق الفعل كما قدمه بارسونز ، وخاصة نموذج التفاعل والتبادل بين الانساق الفرعية ، يتشابه دائما مع نظام التبادل كما هو موجود فى السوق حيث يجتمع منتجون غرباء عن بعضهم البعض ـ ابنيه ووظائف انساق الفعل ـ من أجل المفاوضة والتجارة · وكان على بارسونز هنا ايضا أن يبنى تحليله فى ضوء أساليب القياس ، الامر الذى يجلب نفس التحفظات التى اثيرت بشأن نموذج الوظائف الاربعة ·

وتعانى نظرية بارسونز من نقطة ضعف أخرى · لقد اتهم بارسونز بأنه بالغ فى الاهتمام بالتوازن والنظام العام والاستقرار · ولقد أوضحت من قبل لماذا لا اوافق على هذا النقد ، الذى لا ينظر الى فكر بارسونز الا من السطح مع فشل فى التعمق الى قلب المشكلة · ان بارسونز يستحق النقد ، من وجهة نظرى ، لانه لم يقدم تحليلا ديناميا للتناقضات العديدة التى أدخلها هو على نسقه النظرى ·

لقد أدخل بارسونز على نموذجه المتعلق بنسق الفعل عددا من المصادر المحتملة للتوتر والصراع ومن ثم التغير الاجتماعى · غير انه لم يظهر وجود هذه التناقضات والدور الدينامى الذى يجب أن تلعبه · أحد الامثلة على ذلك هو التناقض الكامن فى مخطط متغيرات النمط · فهذه المتغيرات هى بطبيعتها متناقضة : فالعمومية تتعارض مع الخصوصية ، والتخصص يتعارض مع الانتشار وهكذا · لقد أهمل بارسونز الحقيقة التى مؤداها أن أحد قطبى المتغير لا يسود فى أحد انساق الفعل الواقعية مع غياب القطب الآخر كلية · فهناك دائما قدر من الخصوصية عندما تسود العمومية ، وهناك دائما قدر من الوجدانية عندما يسود الحياد الوجدانى · وفى أى نسق من انساق الفعل ، يكون وجود القطب المضاد مصدرا كامنا للصراع والاختلاف ·

وينسحب نفس الكلام على التناقض بين « الطوعية » والوظيفية · لقد لام بعض النقاد بارسونز لانه تخلى عن الطوعية التى ظهرت فى الصورة الأولى لنظريته فى الفعل ، والتى قدمها فى كتابه « **بناء الفعل الاجتماعى** » ، ولانه غير اتجاهه الى الوظيفية · ويبدو لى أن هذا النقد

ليس قائما على أساس سليم · فالمحقق أن الطوعية قـــد ظلت دائمـــا موجودة فى نسق الفعل الذى قدمه بارسونز ـ تحت اسم تحقيق الهدف goal attainment · فـلم يكن فى النظرية الطوعيـة التى قدمهـا عام ١٩٣٧ شيء سوى هذه الوظيفة · أما النقد الذى أوجهه لبارسونز هنا فانه ينحصر فى أن بارسونز لم يبق الا على هذا العنصر من الطوعية ومن ثم فانه حصر دافعية الفعل فى قالب « سوسيولوجى » · وهنا أيضا تجنب بارسـونز التناقضـات الكامنـــة فى أنسـاق الفعـــل · **فأولا : قلـل** التصادم بين تحقيق الهدف والضوابط المضـــادة التى تنتج عن الاداء الوظيفى للنسق وعن العوامل الخارجية ، قلل هذا التصادم الى حـده الأدنى · **وثانيا** ، تجنب الصراع بين الغرائز والثقافة ، بين ما هو فردى وما هو اجتماعى ، وذلك عندما حصر دافعية الفعل فى استعدادات الحاجة المتعلمة · فالاعتراف بأن الصراع يمكن أن يتولد داخل نسق الفعـــل لا يعنى انكار التوافق (الالتقاء) بين عملية التشكل النظـــامى وعملية استدماج القيم ؛ انه يعنى أن هذا التوافق يجب أن يدرس بعمق · اعتقد أن بارسونز قد فشل هنا فى استغلال كل امكانيات نسقه النظرى ·

اذا كان يجب علينا أن نصدر حكما أخيرا على أعمال بارسونز ، فاننى اعتقد انه لا يجب الحكم عليه بأنه عقيم أو يخلو من الفائدة · ففى اعتقادى ان بارسونز قد فتح الطريق امام امكانيات (احتمالات) كان لا يفكر فى اكتشافها · ولهذا فان الفكر السوسيولوجى لن يتقدم عن طريق اهمال اسهامه · واننى مقتنع بأن النموذج المنهجى الذى قـدمه بارسونز لدراسة الفعل يفتح الطريق امام فرص عديدة لعلم الاجتماع ـ بما فيه علم الاجتماع الراديكالى ـ تنتظر فقط الى من يأخذ على عاتقه دراستها والاستفادة منها ·

الحـــواشى

(١) انظر :
R. K. Merton, **Social Theory and Social Structure**, enlarged endn (New York, Free Press, 1968); Bernard Barber, **Science and The Social Order**, (Glencoe III., Free Press, 1952).

(٢) انظر :
Robert Bellah, Tokugawa Religion : The Values of Pre-Industrial Japan (New York, Free Press, 1957).

قدم بيلاه وصفاً لمراحل بحثه ، الذى انجز تحت اشراف بارسونز ، وكيف أنه استخدم ونبنى عناصر كثيرة من نموذج بارسونز النظرى وذلك فى المقال التالى :
"Research Chronicle : Tokugawa Religion" in **Sociologist at Work** edited by P. E. Hammond (New York, Basic Books, 1964)

(٣) انظر :
Neil J. Smelser, Social Change in The Industrial Revolution (London, Routledge and Kegan Paul, 1959); The Sociology of Economic Life (Englewood Cliffs, NJ, Prentice-Hall, 1963.

(٤) انظر :
S. M. Lipset, **The First New Nation** (New York, Basic Books, 1963); S. M. Lipset, A. Solari, et al, **Elites in Latin American** (New York, Oxford University Press, 1967); Suzanne Keller, **Beyond The Ruling Class, Strategic Elites in Modern Societies** (New York, Radom House, 1963); Rainer C. Baum, "Values and Democracy in Imperial Germany", **Sociological Inquidy**, 38, 2, 1969, PP. 179 - 96.

(٥) انظر :
Robert Dreeben, On What is Learned in School (Reading, Mass, Addison - Wesley, 1968).

(٦) انظر :
N. J. Smelser, Social Change in the Industrial Revolution, **op. cit.**, **Theory of Collective Behaviour** (New York, Free Press, 1962); Chalmers Johnson, **Revolutionary Change** (Boston, Little, Brown and Co., 1966).

(٧) انظر :
H. Stuart Hughes, **Conscious and Society: The reorientation of**

European Social Thought, 1890 - 1930 (New York , Random House, 1958).

(٨) ربما يستثنى من ذلك فى ميدان علم النفس :
James Olds, **The Growth and Structure of Motives** (New York, Free Press, 1955).

وفى ميدان الانثروبولوجيا انظر :
Terence S. Tuner, "Parson's Concept of Generalized Media of Social Interaction and its relevance for Social Anthropology" **Sociological Inquiry**, 38, 2, 1968, PP. 121 - 34.

ويبدو أن النظرية الاقتصادية لبارسونز معروفة لدى الباحثين الفرنسيين أكثر من الباحثين الامريكيين - انظر :
Jean Cuisenier, " Sur L'action economiques", **Revue Francais de Sociologie**, 10 (no Special), 1969, PP. 575 - 84, and Alain Caille, "L'autonomie du Systeme economique, Selon Talcott Pansons", **Sociologie du Travail**, 12, 2, 1970, PP.190 - 207.

(٩) انظر .
Karl Deutsch, **The Nerves of Government: Models of Political Communication and Control** (New York, Free Press, 1963); "Integration and The Social System: **Implications of Functional Analysis**" in : **The Integration of Political Communities**, edited by P. E. Jacob and J. V. Toscano (Philadelphia, Lippincott, 1964) PP. 179 - 208.

(١٠) أنظر :
William Mitchell, **Sociological Analysis and Politics: The Theories of Talcott Parsons** (Englewood Cliffs NJ, Prentice-Hall, 1967).

(١١) أنظر :
David Easton, **A Systems Analysis of Political Life** (New York, John Wiley, 1964); **A Framwork for Political Analysis** (Englewood Cliffs, NJ, Prentice-Hall, 1965).

(١٢) أنظر :
Amitai Etzioni, **Political Unification: A Comparative Study of Leaders and Forces** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1965).

(١٣) انظر :
C. Wright Mills, **The Sociological Imagination** (New York, Oxford Universsity Press, 1959) especially Chapter 2, "Grand Theory".

(١٤) انظر :

Irvins Lous Horowitz, "Social Science, Objectivity and value — Neuarality : Historical Problems and projections", Diogenes 39, 1962, PP, 17 — 44; "Consensus, Conflict and Co - operation : A Sociological Inventory ,Social Forces 41, 2, 1962, PP. 177 — 88; "Max Weber and The Spirit of American Sociology", Sociological Quarterly, 5, 1964, PP. 344 - 54.

ويعتبر هوروتس أيضا مؤرخا « لمشروع كاملوت » الشهير الذى حاول فيه رجال الادارة والجيش الأمريكى ان يجندوا علماء الاجتماع فى دراسة الظروف التى تشجع أو لا تشجع على قيام الحركات الثورية فى البلدان النامية :

أنظر :

The Rise and the Fall & Project Camelot (Cambridge, Mass., MIT Press, 1967).

(١٥) انظر :

Alvin Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology (New York, Basic Books, 1970).

وانظر أيضا مجموعة المقالات المنشورة بعنوان :

For Sociology: Renewal and Critique in Sociology Today (London, Allen Lane, 1973).

وتشتمل هذه المقالات على مقالات بعنوان :

"Anti - Minotaur : The Myth of a Value - Free Sociology" (PP. 3 - 26), "The Sociologist as a Partisan' Sociology and The Welfare State" (PP. 27 - 68); "Some Observations on Systematic Theory, 1945 - 55" (PP. 173 - 189).

(١٦) انظر :

Melford E. Spiro, "A Typology of Functional Analysis", Explorations, 1, 1953.

(١٧) عند هذه النقطة أرجع روشية القارىء الى مناقشة هذه الاختلافات (الفروق) فى مؤلفه :

Introduction a La Sociologie generale, Vol. 2, L'organisation Sociale (Montreal and Paris, Editions HMH, 1969).

ويفضل أن يرجع قارىء الانجليزية الى مناقشة عن تحليل الانساق والوظيفة فى المؤلف التالي :

S. J. Menell, Sociological Theory: uses and unities (London, Nelson, 1974) Chapter 6. (SJM).

(١٨) انظر :

Talcott Parsons, "Some Problems of General Theory in Sociology" in : Theoretical Sociology: Perspective and Developments, edited

by J.C. McKinny and E.A. Tiryokian (New York, Appleton-Century-Grofts, 1970), PP. 35 - 6.

وانظر ايضاً :
"Cause and Effect in Sociology" in : **Cause and Effect**, edited by Daniel Lerner (New York, Free Press, 1965) PP. 51 - 73.

(١٩) انظر بصفة خاصة :
"Recent Trends in Structural - Functional Theory" in **Fact and Theory in the Social Sciences**, edited by E. W. Count and G. T. Bowles (Syracuse, Syracuse University Press, 1964), PP. 140 - 53.

(٢٠) انظر :
A. W. Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology, **op. cit.**, P. 31.

(٢١) انظر :
L. A. Coser, **The Functions of Social Conflict** (New York, Free Press, 1956); **Continuities in the Study of Social Conflict** (New York, Free Press, 1967).

(٢٣) انظر :
A. W. Gouldner , The Coming Crisis of Western Sociology, **op. cit.**, P. 140.(SJM).

(٢٤) انظر :
Social Behaviour: its Elementary Forms (New York, Harcourt Brace and World, 1961), PP. 10 - 11.